Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المبادىء التي جاء بها من كتابات لأدباء ومفكرين إنكليز ، في حين أن ضومط ، وإن استفاد من الأمثلة الإنكليزية التي قدمها سبنسر ، فإنه سعى إلى التعامل مع نماذج عديدة من الكتابات النقدية والأدبية العربية ، خاصة عند دراسته للأفعال[٥١] . هذه الدراسة التي لا تتوافق إلا مع « المزاج » العربي في استعمال « الفعل » في الكتابة . يضاف إلى هذا كله أن الرغبة الدائمة في طرح مبدأ « التوصيل الأدبي » كانت هاجساً عند ضومط ، ليس في كتاب « فلسفة البلاغة » وحسب ، بل في جل ما كتبه وبحث فيه طيلة حياته الأدبية . ولذا ، يمكن للمرء أن يقول إن ضومط أخذ عن سبنسر فكرته وتبناها طيلة حياته الفكرية وفي كل إنتاجه التنظيري للفعل الأدبي العربي .

والسؤال الآن هو ماذا حدث لأفكار جبر ضومط حول البلاغة والتوصيل والفعل الأدبي بصورة عامة ؟ . من الملاحظ أن هذه الأفكار لم تنتشر بما فيه الكفاية ، ولم تصبح ، رغم المنطق الميسَّر والواضح بل والمقنع ـ إن لم نقل المباشر ـ الذي اعتمدته، وسيلة في فهم الكتابة والتعامل معها. إن كتب البلاغة المدرسية ، والجامعية حتى ، لم تزل بعيدة عن أفكار ضومط ومنهجه . أما مصطلحاته وتعابيره حول « الاقتصاد » فيبدو أنها غابت مع غياب الرجل ولم يقم أحد من دارسي الأدب ورجال النقد في هذا الزمن باعتمادها .

ويتساءل المرء ما هي قيمة تجربة ضومط هذه ؟ ما هو « الفعل » الذي تركته رحلة هذا المثقف العربي على مركب الرحلة إلى « الأفضل اللامتناهي » ؟ حاول جبر ضومط أن يُقدم « بقعة الضوء » التي قبسها من الحضارة الغربية الوافدة بقالب عربي . عرَّبها ، أو على الأقل ، حاول تعريبها . ومن يقرأ كتاب « فلسفة البلاغة » دون أن تكون دراسة هربرت سبنسر في خلفية تفكيره ، يدهش كثيراً من براعة ضومط ؛ ولعله يعجب بأفكاره ، كما أنه قد يسعى إلى تبنيها . وضومط نفسه قد تبنى هذه الآراء ، كما سبقت الإشارة آنفاً ، في جل أعماله ونقاشاته حول الفعل الأدبي . فلِمَ لم يحقق النجاح المرجو؟ هل كانت خطوته باتجاه« التنوير » ناقصة ، فكانت نتيجة رحلته خطوة أخرى نحو « العتمة » يعانيها الفكر العربي وحضارته في الزمن المعاصر ؟